شوارع الذاكرة:
المناظر الطبيعية والتسامح والهوية الوطنية في إسطنبول

كتبته امي ميلز

حرره: سيبال بوزدوغان

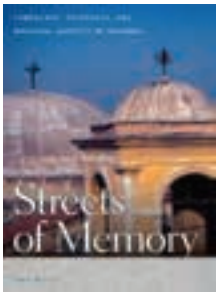

أذنت التحولات الليبرالية الجديدة / ما بعد الكمالية، التي شهدتها الثقافة والسياسة التركية باهتمام متجدد بماضي إسطنبول وآثارها التي تحمل عبق تاريخها الحضري. وبينما يتم التعبئة لصناعة ثقافة متطورة على نحو متزايد، لإعادة صياغة الثقافة السابقة، تجري مشاريع لتطوير الأحياء التاريخية بطرق جديدة ومثيرة للجدل في كثير من الأحيان. تقدم دراسة إيمي ميلز الإثنوغرافية وصفًا وتوضيحًا للعمل الذي يجري على شواطئ مضيق البوسفور الخلابة في الجزء الآسيوي، والتي تعد مثالًا للتعايش بين الأعراق المتعددة، وحسن الجوار، والطبيعة الساحرة في مدينة فقدت معظم هذه الصفات بسبب التحضر الجمهوري/ التحديث الاجتماعي خلال النصف الأخير من القرن العشرين. ترسم ميلز في الفصول الستة، صورة كوزجونجوك Kuzguncuk، كحي مثالي، يجسد الإنتماء والألفة والإنسجام والتسامح العرقي/ الديني، ويحجب تاريخ التمييز والصراع والعنف الذي حدث بالتزامن مع القومية، "التتريك"، والحلقات المتعاقبة من الهجرة. تقول ميلز: "يشكل الحنين الجانب الآخر من الصمت" (ص210)، هذا الكتاب يوضح كيف أن الحنين العالمي، بجانب الصمت، يعزز في نهاية المطاف نفس النزعة القومية التركية التي تدعي أنها في خضم صراع وتنافس.

يفتتح الفصل الأول بلمحة تاريخية عن التحولات التي شهدتها التركيبة الإثنية والدينية، والطبقية، وخاصة رحيل المقيمين من غير المسلمين في أعقاب "ضريبة الثروة" التي فرضت على الأقليات في الأربعينيات، ومذابح عام 1955، وكذلك تزامن وصول المهاجرين الأتراك المسلمين من ريف الأناضول مع هذه الأحداث. ثم يتناول الفصل الثاني التأثير السلبي لهذه البقايا الاجتماعية والذكريات المؤلمة في "إعادة هيكلة" حي كوزجونجوك المثالي في الآونة الأخيرة، سواء في وسائل الإعلام الشعبية (المسلسلات التلفزيونية والأفلام)، أو من خلال القادمين الجدد (معظمهم من المهندسين المعماريين والأكاديميين والمهنيين). قصة حديقة السوق المتنازع عليها في الفصل الثالث تبين كيف يتم التقليل من شأن مصادرة ممتلكات عائلة يونانية في عام 1977، خلال المواجهة بين مطوري القطاع الخاص الذين يريدون بناء الموقع وسكان كوزجونجوك الذين يرغبون في الحفاظ عليه كحديقة. وعن طريق تتبع ادعاءات الملكية، توضح ميلز الصدع الآخر في وحدة سكان حي كوزجونجوك.

و يركز الفصل الرابع على شارع أساديا، الشارع الرئيسي في حي كوزجونجوك، ومقر اللقاءات اليومية والأحداث الطائفية، مثل المهرجانات والجنازات، وما إلى ذلك. بوضع هذه الروايات حول إنسجام الأعراق

المتعددة بجانب الصمت الذي أحاط بمذابح عام 1955 ضد المسيحيين، تسلط ميلز الضوء على الطرق التي تنتج بها الذاكرة من تلقاء نفسها أماكنها الثقافية الخيالية.

في الفصل الخامس، تتم مناقشة النوع (الجنس) وتعامل الجيران بين النساء في حي كوزجونجوك. استنادًا إلى ميشيل دي سيرتو، تتبنى ميلز مفهوم "اللياقة" الذي ينظم قواعد السلوك الاجتماعي، والإدماج/ الإقصاء، والعام/ الخاص داخل الحي. أما الفصل الأخير حول يعقوب الأزيز يدور حول الطائفة اليهودية في حي كوزجونجوك، وتتبع جذورها التاريخية في إسطنبول العثمانية والهجرات اللاحقة من كوزجونجوك إلى أحياء أخرى في المدينة، وكذلك إلى إسرائيل بعد عام 1948. ومن خلال مقابلات مطولة، ترى ميلز أن اليهود في تركيا يؤيدون الحديث عن الدولة العلمانية والحداثة والتناغم، في حين أن أولئك الذين هاجروا منهم إلى تل أبيب أكثر انفتاحًا لتبادل قصصهم حول التمييز والطرد. يمكن القول، إن تحول ميلز إلى تل أبيب يجعل هناك بعض التفاوت في عملها، حيث إنها لم تفعل نفس الشيء بالنسبة للجماعات غير المسلمة الأخرى، على سبيل المثال، لم تتبع يونانيي كوزجونجوك، في أثينا، أو الأرمن في لبنان أو أمريكا. ومع ذلك، فإن العمل يسلط الضوء على كيفية أن الجغرافيا المتنوعة تلعب دورًا في تاريخ الهجرة، والهجرة والمنفى، معقدة بذلك الإثنوغرافيا المرتبطة بالمكان.

هذه الفصول مجتمعة تكشف بشكل مقنع دور المناظر الطبيعية والذاكرة (الفردية والجماعية) في تشكيل الهويات. كما يتطرق الكتاب لكتاب آخرين، ويسهم في عدد من النقاشات النظرية الهامة التي تخاطب جمهور متنوع وعريض بشكل يتخطى الدراسات التركية. وهناك اعتراف بفضل أفكار "المشهد الرمزي" (هنري ليفبفر) و"الذاكرة الجماعية" (موريس هالبفاكس)، وأيضًا النظريات النقدية حول المناظر الطبيعية التي تظهر كيف أن الطبيعة يتم بناؤها ثقافيًّا "كمشهد طبيعي" عن طريق محو تاريخ التدخل البشري (كما ذكر دينيس كوسجروف، ولم يذكر وليام كرونون، وريموند وليامز). وبالاستفادة من المصادر النظرية، استطاع هذا الكتاب بنجاح تفكيك وتحليل كوزجونجوك إلى "مسرح تاريخي وطبيعي لحياة الحي... حتى في الوقت الذي يمحو فيه التاريخ" (ص84). المصادر المقارنة بالنسبة للدراسات الأخرى، مثل دراسة ديبيش تشاكرابارتي حول العلاقات الطائفية بين المسلمين والهندوس في المجتمع البنغالي خلال العام 1947 (ص133) أو دراسة تون برينجا حول النساء الكاثوليكيات والمسلمات في إحدى القرى البوسنية قبل انهيارها في الحرب الأهلية (ص 160)، تتيح للقارئ التحرك بحرية بين قصة كوزجونجوك، وبين أسئلة أكبر تتعلق بصنع الهويات في كل مكان.

كما تعترف الكاتبة أيضًا، من خلال "المشهد الحضري والبعد المادي والثقافي والجغرافي لتداخل الدولة والمجتمع في تركيا" (ص210)، بأن كتاب شوارع الذاكرة يكمل كتاب إسراء أوز يورك "الحنين إلى الحديث" الذي صدر مؤخرًا. وسواء كان هذا الحنين إلى صور الحداثة الكمالية (اوزيوورك) أو لتركيبة كوزجونجوك السكانية الضائعة (ميلز)، فيُلاحظ أن كلا الكتابين يوضحان كيف يؤدي الحنين إلى خصخصة وتسليع ماض مثالي/ خيالي، ويجبر الأفراد على إضفاء صفات الدولة على حياتهم اليومية. أيضا فكرة ميلز المتعلقة بـ"الكونية الموجودة في الواقع" تحظى بأهمية خاصة، وترفض الخلط بين الكونية والعولمة وأنماط الحياة العابرة للحدود الوطنية، وترى أن الكونية والقومية لا تتعارضان ولكنهما مترابطتان (ص 214–

215). إسطنبول في منتصف القرن تشهد، كما تقول ميلز "... علاقات اجتماعية كونية تواجدت جنبًا إلى جنب مع عملية تأميم للثقافة الحضرية، وفي نهاية المطاف تحطمت بطرق تزامنت فيها القومية والتحضر" (ص213).

بالاعتماد على ملاحظات المؤلفة والمقابلات والأبحاث الثانوية التي أجريت بإسهاب، يعد شوارع الذاكرة مثالًا بارزًا على الإثنوغرافيا الثابتة في مكان، بكل مزاياها، وصعوباتها. لكن عدم وجود بيانات، وتحليل كمي ووثائق تاريخية حول تاريخ كوزجونجوك يعتبر ثغرة في هذا العمل، تعترف بها الكاتبة (ص227). وثمة نقطة ضعف أخرى، على الأقل بالنسبة للمراجع، وهي أن تكرار الحجج الرئيسة يفسد تدفق السرد في الكتاب. في المقدمة، والبداية ونهاية كل فصل، ثم مرة أخرى في الختام، تلخص الكاتبة مرارًا وتكرارًا ما تفعله وكيف تفعله. نتيجة لذلك، يبدو أن هذا العمل شبيه بالأطروحة العلمية من حيث "الإطناب" والمصطلحات الأكاديمية. وأخيرًا، هناك فرصة ضيعتها ميلز وهي النسيج العمراني والهندسة المعمارية لكوزجونجوك. أحيانًا تقترب في بعض أجزاء الكتاب: على سبيل المثال، التفريق بين الشوارع السكنية والشارع الرئيسي (ص 139)، وكيف يستخدم القادمون الجدد الأماكن بشكل مختلف (ص 152)، أو كيف تنظر النساء من النوافذ إلى شرطة الحي (ص 144).

ومع كل ذلك، تبدو هذه الملاحظات هامشية، ومع ذلك نجد أن هناك القليل من الأدلة البصرية، بعيدًا عن خطة الشارع في البداية (وعدد قليل من الصور التي ليست ذات قيمة عالية). ما هي أنواع النوافذ التي تصلح لمراقبة الشارع؟ وما هي أهمية مساحة وعرض الشوارع؟ هل الأزقة أكثر ملاءمة لحياة المجتمع المنغلق، بينما الطرق توحي بالمجتمع المنفتح الحديث (كما يقول مراد غول في كتابه الأخير عن تاريخ إسطنبول الحضري الحديث)؟ ماذا تقول البيوت القديمة "المرممة" بهياكل خرسانية وأخشاب ملونة عن الأصالة، والحنين "لبيئات الماضي"؟ هذه الأسئلة وأسئلة أخرى يمكن أن تثار لجعل هذه الدراسة الإثنوغرافية أكثر قوة، وأكثر "ارتباطًا بالمكان". أيضًا توسيع البحث في هذا الاتجاه، وإثراؤه بالمزيد من المواد المرئية، وربما التعاون مع المؤرخين الحضريين/ المعماريين (على سبيل المثال، في الأعمال الحديثة؛ مثل الهندسة المعمارية وذاكرة الأقلية في المدينة الإسلامية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، 2010) هي فقط بعض من الاحتمالات والآفاق لهذا الكتاب.

لكن في النهاية، التساؤل الذي يطرحه هذا العمل هو هل الحي يصلح أن يكون حقًا "مساحة للكونية"؟ هنا أود أن أقول إنه إذا كانت الكونية في المقام الأول لقاءات في المناطق الحضرية مع الاختلافات (ريتشارد سينيت) وموقفًا غير مبال فرضه وضع المدينة والحضر على الأفراد (جورج سيمل)، إذن هو بالتعريف، نقيض الألفة والحياة المجتمعية المغلقة التي تعطي مفهوم الحي. ويبدو أن هذه المعضلة، على سبيل المثال، في تناقض مع القادمين الجدد لكوزجونجوك، لا سيما النساء المهنيات، تجاه حياة الحي: وبحثهم عن الشعور بالانتماء في نفس الوقت الذي يرفضون فيه غزو الخصوصية التي تأتي معه (ص 141). إن حياة الحي تعني أيضًا إضطهاد الحي وهي قضية مؤثرة بشكل خاص اليوم، بين المجتمعات المحافظة الإسلامية و"الأتراك البيض" من ضواحي المدن. بالمقارنة مع هذه الأشياء، يشعر المرء أن حنين كوزجونجوك على الأقل؛ عالمي، وحضري، ومتناقض ومهتم بتاريخ الأقليات، وإن كان ذلك بطرق خشنة تستخدمها ميلز.